

الشيوعي الذي لم يكن فقط تحت هيمنة الزعامة اليهودية ولكن الذي تعرضت عناصره العربية الى بطش وارهاب القيادات الانتطاعية منذ اواخر العشرينات . امام هذه الخلفية المركبة ، التي تستخدم فيها تناقضات متداخلة شديدة التعقيد ، خطت ثورة ١٩٣٦ الى الصف الامامي في تاريخ فلسطين .

الثورة

يتسابق الكثير من المؤرخين في اعتبار حداث معين وقع في مكان معين هو السبب في انفجار ثورة ١٩٣٦ : يعتقد يهودا بووير ان الحادث الذي « يعتبر عموما بداية اضطرابات ١٩٣٦ » حدث في ١٩ نيسان ١٩٣٦ حين « هاجمت حشود من العرب في يافا المارين اليهود » (٥٩) . ويعتبر عيسى السفري (٦٠) وصالح مسعود ابو يصير (٦١) وصبحي ياسين (٦٢) ان الشرارة الاولى انما كانت قيام عصابة عربية مجهولة (يقول صبحي ياسين انها كانت عصابة قسامية منها فرحان السعدي ومحمود ديراوي) بنصب كمين لسيارات كانت تعبر بين عنبتا وسجن نور شمس ، بلغ عددها ١٥ ، فسلبت الركاب اليهود والعرب على السواء اموالهم ، والقي احد الافراد الثلاثة من العصابة خطبة موجزة في الركاب العرب الذين كانوا اكثرية الركاب ، كما يقول السفري ، تضمنت القول بان الثورة قد بدأت و « اننا نأخذ اموالكم لكي نستطيع ان نحارب العدو وندافع عنكم » (٦٣) . ويرى الدكتور عبد الوهاب الكيالي (٦٤) ان الشرارة الاولى انفجرت قبل ذلك ، اي في شباط ١٩٣٦ ، حين تألفت حامية من العمال العرب طوقت احدى المدارس التي كان متاولون من اليهود يقومون ببنائها بواسطة ايد عاملة يهودية فقط في يافا . الا ان جميع المصادر تعتبر عن حق ان الانتفاضة القسامية التي فجرها الشيخ عز الدين القسام كانت هي البداية الحقيقية لثورة ١٩٣٦ . على ان تقرير اللجنة الملكية البريطانية (اللورد بيل) (٦٥) ، وهو التقرير الذي يعتبره يهودا بووير من انفضج ما كتب عن المسألة الفلسطينية حتى الان ، يقفز فوق هذه التعابير المباشرة عن الانفجار ، ويرد الاسباب في انفجار الثورة الى سببين رئيسيين هما : رغبة العرب في نيل الاستقلال القومي ، وكرههم لانشاء الوطن القومي اليهودي وتخوفهم منه . وهذان السببان ،

الذي وسط الازمة الموضوعية والذاتية التي كان يعيشها المجتمع العربي في فلسطين ، وظل امير القيادات الانتطاعية - الاكثريكية لهذه الاسباب كلها مجتمعة . فامام المسف الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يلحق بالفقراء العرب في المدن والقرى لم يكن من الممكن للحركة الوطنية الا ان تأخذ اشكالا متقدمة من النضال والا ان ترفع شعارات وتتبع مسالك طبقية ، وامام الحلف المتين المعبر عن نفسه يوميا بين مجتمع الغزو الذي بناه الصهيونيون في فلسطين وبين الامبريالية البريطانية لم يكن من الممكن تغييب اولوية السبة القومية لذلك النضال ، وامام الحمى الدينية المهولة التي ارتكز عليها الغزو الصهيوني لفلسطين والتي التصقت بكل مظاهره كان من المستحيل الا يتمترس الريف الفلسطيني الخلف وراء التعصب الديني ، كمظهر من مظاهر معاداة الغزو الامبريالي والصهيوني (٦٦) .

ولقد تقدمت القيادات الانتطاعية - الاكثريكية للتربع على رأس حركة الجماهير ، مستفيدة من ضهور البورجوازية العربية المدنية ، ومن الحد المعين من التناقض الذي كان يحدث بينها وبين الامبريالية البريطانية التي كانت ترسي نفوذها عبر حلفها مع الحركة الصهيونية ، ومن صفاتها الدينية ، ومن صغر حجم البروليتاريا العربية وضهور حزبها

(٦٧) تقول مجلة « متسبن » اليسارية العبرية في عددها رقم ٥٨ الصادر في نيسان ١٩٧١ ، تعليقا على ظهور حركة الفهود السود في اسرائيل : « تبيل التناقضات الطبقية في اسرائيل ، في بعض الاحيان ، الى الظهور بمظهر تناقضات طائفية - ان المطالب الطبقية ، حتى وهي تترجم الى لغة طائفية ، تمس منذ لحظة البداية قلب الصهيونية في الصميم » . طبعا تنطبق صحة هذا القول بصورة مضاعفة على الدور الذي لعبه الدين ضد الغزو الصهيوني ، بصفته اضطهاد قومي وطبقي في آن واحد . وعلى سبيل المثال فقد « كان من ثمرات الغزو الصهيوني ... ان تحولت الموالد النبوية الى مهرجانات قومية يتدبر من مفتي حيفا والشاعر وديع البستاني ، وكان يحضر الحنلة جميع الرؤساء الروحانيين واعيان النصارى ، ولم يكن يدعى اليهودي اليها قط ، وهكذا اصبحت الموالد ، الاسلامية والمسيحية ، اعيادا شعبية تقام بمظهر قومي في مدن فلسطين » .